رأي للمناقشة ...

اني أتهم ... ثقافتنا المعاصرة !

بقلم محيي الدين اسماعيل

اني أتهم !..

اني أتهم ثقافتنا المعاصرة بالحيرة والتخلف وانعدام الخصائص الذاتية وفقدان القدرة على عناق قضايانا الكبرى !..

اني أتهم ثقافتنا المعاصرة ، باطنا لظاهر ، جوهرا وعرضا ، أسلوبا وغاية ، نهجا ومسلكا ، بفراغها من أية أصالة ومغامرات جدية مسؤولة !..

اني أتهم ثقافتنا المعاصرة ، بأنها لم تعد مأذونة ، على الاطلاق ، بالتحدث عن الانسان والانسان العربي ، وعن القيم والمثل والفضائل العليا !..

فالانسان ، والانسان العربي ، والانسانية ، والقيم الحياتية العليا ، والمثل الرفيعة والفضائل الانسانية النبيلة ، لم تعد مادة الثقافة العربية المعاصرة ، بالرغم من كل ما أرجفت به وخاضت في شطآنه ، الى أن أصابها الأين والاعياء ، وهي في ذروة رضاها عن نفسها .. ومواقفها التمجيدية من الذات ومتاجرتها بما لم يكن يوما ما ملكا خالصا لها ، الى أن استحالت بين يديها جميع القيم والمثل والفضائل التي تحدثت عنها الى محال .

لقد ولدت « حركتنا الثقافية المعاصرة » وفي صميمها جميع موجبات نفيها والغائها ، ودون أن تكون عليها آثار بصماتنا نحن . لقد ولدت هذه الحركة من خلال حالة مرضية غير متسامحة ولا متفتحة . ولدت تحت ظروف الذل والهوان ، وتحت وطأة مركبات النقص التي ينوء تحت ثقلها الرازح كل فرد منا، ازاء الغرب وسطوته الفكرية القاهرة ، دون ان تكون لنا الطاقة الاصيلة الحية على أن نأخذ ونتمثل ونعطي .

ان فقدان القدرة على الهضم والتمثيل ، وعلى التمييز والاحكام النزيهة ، كانت عرضا يكاد يكون خصيصة ثابتة في هذه الحركة . فقد بدأت هذه الحركة ، وكأنها محط طاقة استهلاكية لا غير .. طاقة من جملة طاقاتنا الأخر على الاستهلاك . اننا نستهلك أجهزة راديوات الترانزستور وأجهزة التلفزيون وسكاير « كنت » وأصواف يوركشاير ، ونستهلك ونستهلك ، وفيما نستهلكه أيضا ، أشعار ت. س. اليوت وبابلو نيرودا وقصص كافكا وسارتر ومسرحيات ديرنمات . واستهلاكنا لهذه الآثار استهلاك عادي رخيص مسطح ، لا يعدو أن يكون استهلاك الورق الذي نشرت عليه هاتيك الآثار .

واذ بدأت حركتنا الثقافية المعاصرة باستهلاك هذا الضرب من الآثار ، بحوافز مركبات النقص ومولداتها ، وتحت ظروف الذل والهوان ، انقطعت اصلا وجذرا ، عن المصادر الاولى للثقافة الغربية القائمة على الحضارة الاغريقية ـ اللاتينية المسيحية ، بالاضافة الى انقطاعها عن الحضارة الأم ، حتى لا تكاد تجد أحدا منا يستطيع ، مثلا ، أن يفهم ويستوعب صفحة واحدة من كتاب « الوجود والعدم » لسارتر فهما واستيعابا حقيقيين ، ذلك انه في غربة توشك ان تكون كاملة مطبقة سوداء ، عن جميع مصطلحات العالم المتحضر من أثينا الى الاسكندرية مرورا بروما وباريس ولندن وموسكو . ومهما كانت القيمة الموضوعية لكتاب « الوجود والعدم » الا انه كان ثمرة من ثمار عملية طويلة من مغامرات الفكر والروح ، في أوروبا ، وان له وشائج تمتد عبر قرون حضارية عديدة . وقل مثل ذلك في غيره من الآثار الفكرية والروحية العظيمة المؤثرة في حياة العصر . وانك لا تكاد تجد أيضا ، أحدا منا يستطيع أن يتمثل حق التمثل حركة اللامعقول في المسرح الغربي ، مثلا ، ذلك ان هذه الحركة قد جاءت رد فعل لخيبة مريرة يعانيها الكاتب الغربي ازاء صفوكليس وشكسبير وراسين وكورني والتراجيديا الكلاسيكية الكبرى . فاللامعقول ، بهذا المعنى ، حركة هجائية مقذعة ضد أساتذة المسرح الفاجع في الغرب الذي نقف نحن غرباء عنه تمام الغربة ، اذ ننتمي الى عالم آخر بعيد سحيق في بعده .

ولقد بدت محاولات البعض منا ، كتوفيق الحكيم ، وكأنها تسديد هجمات على طواحين الهواء ، اذ كانت بمثابة الثورة على مسرح عربي كلاسيكي لم يولد بعد ! لقد كانت محاولة بلا أية مسوغات ، لأننا لم نعان قط ، ولا على أي مستوى من المستويات ، هذا النمط من رد الفعل ، ازاء مسرح الاغريق ومسرح فرنسا الكلاسيكية ومسرح الملكة اليصابات ، ولا ما بعدها من مسارح أخر .

وينذر أن تجد أحدنا قد تعرف على الآثار الكبرى للتراث المسرحي العظيم . وأذكر ان مسرحية عرضت بالقاهرة لكاتب مصري معروف ، وكان عنوانها «الفرافير» ، وقد نجحت نجاحا كاسحا ، ورحب بها مثقفونا ، وقد حضرتها فوجدت انها لم تكن سوى « تعصير » (تحويلها الى مسرحية معاصرة) لمسرحية « الضفادع » للكاتب

الاغريقي الساخر أرسطوفان ، وعجبت أن نشهد جميعنا هذه المسرحية ، ولا يدرك أحد منا حقيقة الصلة بين المسرحيتين . ولقد دلني ذلك فيما بعد ، مع شواهد عديدة أخرى ، على ان عزلتنا عن منشآت الحضارة عزلة قصية مذهلة تثير الدهشة والاستغراب .

والشاعر عندنا ، كأي من المثقفين العرب ، يعاني من هذا التناقض الحاد بين الداخل والخارج . في الداخل عقم وجدب ، وافتقار الى القدرة على الاخصاب ، وفي الخارج قدرة على المضي في الاستهلاك السريع ، دون توقف أو تأمل . وعلى غرار ما تعرف عليه في البضائع المستهلكة ، فهو يتحدث من الخارج ، وبصوت خارجي ، دون أن يكون تصعيدا من الخارج الى الداخل ، ودون أن يفتح نفسه على نفسه ، ودون أن يكون ذاته ، من غير أن يتجاوزها الى السماء ، أو ينحدر منزلقا الى سقر ، لن يكون هذا الانسان المغامر العظيم ، الذي يصدرعنه الشاعر والفنان والمفكر والبطل .

ان حركتنا الثقافية بخصائصها وظروف ميلادها ومتاعب مركبات النقص فيها ، وكذبها على الذات العربية، عاجزة عن أن تفترع فكرة عظيمة واحدة .

فجميع ما نتحدث عنه من قلق على الانسانية من أسلحة الفتك والدمار والتخريب ومن الوحش السرطاني : القنبلة الذرية ، ما هو الا اصداء ما سمعناه عند اديث سيتويل وغيرها . فنحن لم نعان حتى تجربة الذعر من الهلاك ، لأننا لم نكن ، قط ، طرفا في أحداث العالم المبيدة وصراعه الطاحن .

ولقد تحدثنا عن القلق وضغط المدنية وعقدتها ، وحديثنا ذاك ، لم يكن سوى تقليد سمج لما قرأناه من جيمس جويس وعنه ، وكذلك من أمثاله وعنهم ممن انصرعوا تحت وطأة الصناعة الثقيلة ، في المدن الكثيفة الخانقة . وعندنا ما تزال السماء نقية طاهرة في القاهرة وبغداد وبيروت ودمشق .

ولقد تحدثنا عن غرابة العالم والعجز عن فهمه ، وحواجز الزجاج الصفيقة التي تحتجزنا عنه ، ولم نكن في ذلك سوى مقلدين غير ماهرين ، نتلهى باقتفاء كافكا وثورته على الخطيئة الاصلية في المسيحية انطلاقا من عقدته اليهودية ورموز عقيدته ، واقتفاء آثار أمثاله .

ان حركتنا الثقافية المعاصرة التي تحدثت باسراف واسهاب عن قضايا الانسان والتي كانت تبدو في ذلك وكأنها انطلاق من الوجدان ، وصدور عن الداخل ، هذه الثقافة قد أدانت نفسها بصمتها عن أكبر قضية تواجهها اليوم بالتحدي الصهيوني الجارح الآثم للوجود الحضاري العربي ، بل للوجود العربي كله .

هذه الثقافة التي كانت تثرثر بانفعال ، عن جميع القضايا وبجميع المستويات ، وقد أقلقت الارض والسماء بالحديث بصوت مرتفع عن كل شيء ، تعجز اليوم عن الابانة عن قضية كبرى تواجهها بقوة وبكل ما في التاريخ من ضغط هي قضية : نكون أو لا نكون !

هذه الثقافة تغرق اليوم في الظل وتلوي عنقها وتصمت دون أن تكون لها القدرة على التعبير الحقيقي عن ذاتها ، لأنها لم تكن ذاتها ولا في يوم من الايام ، وبعد أن كانت تمثل دور الوقوف بين القداسة والجنون وتصطنع الذعر الخلاق والقلق المبدع عن مصير الانسان.

هذه الثقافة التي تحدثت بالامس عن عذاب الانسان، كل انسان ، وأي انسان ، وسفحت الدموع الغزار من أجله ، وقالت الكثير في أشواقه ، وشغلت نفسها بهموم العالم دون أن يغمض لها جفن ، واجتاحتها حمى الكآبة من أجل كل شيء ، وأي شيء وبلا ثمن ... هذه الثقافة يصيبها العته والبلاهة والخدر فلم تعد تستشعر وخز الدبابيس أو النصال في جسدها .

والمثقف العربي اليوم ، يواجه عصرا من الحيرة العميقة لا كحيرته بالامس ، انها حيرة آمادها الوجود بأسره ، حيرة تنبع من مواجهة صارمة للوجود والحياة والعالم على حين غرة ، ودون أن يستعد لها باخصاب حقيقي جدي للذات ، يجعله قادرا على الالتزام بتبعات مغامرات فكرية وروحية شهمة جسورة يستطيع أن يشق بها تاريخ المستقبل .

وبالرغم من كل ما في هذه الحيرة من تمزق ازاء المصير ، الا انها لم تبلغ بعد ذروة القلق المبدع . ان بين المثقف العربي وبين هذا الضرب من القلق آمادا كونية وكيانية شاسعة لا بد أن يقطعها ويتجاوزها لكي يقول كلمته ... لكي ينطق بالسلب والايجاب ، ويصوغ تاريخ المستقبل .

ان الحيرة والتخلف في الحركة الثقافية العربية المعاصرة ينسحبان على جميع مجالاتها ، بل على جميع احتمالاتها وما يمكن أن يصدر عنها ، في مرحلتها الراهنة، حتى لتبدو هذه الحركة وكأنها سكون عقيم عاقر مفروض عليها أن تولد لتموت دون ذرية ودون أن تترك أثرا ، ومن غير أن ترتفع الى المستوى الذي تصبح عليه حقيقة تاريخية في حياتنا ، ومن غير أن تزيد من خصائصنا الذاتية ، أو حتى أن تنطلق بحرف جديد .

وهكذا يظل أمامنا مخاض جديد ، لتولد حركة ثقافية عربية جديدة نقرأ فيها الذات العربية ، بلا زيف ، وبلا تلوث بمركبات النقص ، بعد أن انهارت وسقطت تلك الحركة التي تعتصم بهذا الصمت المدوي ، مذ أن واجهها السؤال الكبير : نكون أو لا نكون .

محيي الدين اسماعيل